كما نلاحظ بسهولة ، هما في الواقع سبب واحد ، وتبدو العبارات التي صيغ بها فضفاضة ولا تقود الى اي معنى واضح . ولكن اللورد بيل يضع ما يسميه بـ « عوامل ثانوية » ساعدت على نشوب « الاضطرابات » وهي : ١ ـ انتشار الروح القومية العربية خارج فلسطين . ٢ ـ ازدياد هجرة اليهود منذ سنة ١٩٣٣ . ٣ ـ الفرصة المتاحة لليهود بالتأثير على الرأي العام في بريطانيا . ٤ ـ عدم ثقة العرب في اخلاص حكومة بريطانيا . ٥ ـ فزع العرب من استمرار شراء الاراضي من قبل اليهود . ٦ ـ عدم وضوح المقاصد النهائية التي ترمي لها الدولة المنتدبة . اما قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية آنذاك ، فان مهمها لاسباب الثورة يمكن استنباطه من الشعارات الثلاثة الاساسية التي كانت تتوج بها مجموع مطالبها ، وهي : ١ ـ الوقف الفوري للهجرة اليهودية . ٢ ـ حظر نقل ملكية الاراضي العربية الى اليهود . ٣ ـ اقامة حكومة ديمقراطية يكون النصيب الاكبر فيها للعرب وفقا لغالبيتهم العددية(٦٦). على ان هذه الشعارات ، بالصيغ الفضفاضة التي كان يجري من خلالها ترادفها ، ظلت غير قادرة على التعبير عن حقيقة الموقف ، والواقع انها كرست الى حد بعيد هيمنة القيادة الاقطاعية على الحركة الوطنية .

ان الاسباب الحقيقية للثورة ، في الواقع ، هي وصول حدة التناقض في عملية انتقال المجتمع الفلسطيني من الاقتصاد الزراعي ـ الاقطاعي ـ الاكليريكي ، العربي الى الاقتصاد الصناعي البورجوازي اليهودي (الغربي) الى ذروتها ، كما رأينا في الصفحات السابقة . ان عملية تعميق حالة الاستعمار وتجذيرها ، ونقلها من حالة الانتداب البريطاني الى حالة الاستعمار الاستكاني الصهيوني ، وصلت الى ذروتها ، كما رأينا ، في منتصف الثلاثينات ، والواقع ان قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية قد ارغمت على تبني شكل الكفاح المسلح لانه لم يعد بوسعها ان تظل متربعة على سدةهذه القيادة في وقت وصل فيه التناقض الى شكل صدامي حاسم . وقد لعبت عوامل متناقضة ومختلفة في دفع القيادة الفلسطينية انذاك الى تبني شكل الكفاح المسلح : اولا : حركة عز الدين القسام . ثانيا : سلسلة الاخفاقات التي منيت بها هذه القيادة طيلة فترة تكلسها فوق رأس الحركة الجماهيرية ، حتى فيما يتعلق بالمطالب الجزئية الصغيرة التي لا ترددالمستعمرون عادة في تلبيتها لغرض امتصاص النقمة (وقد ادرك البريطانيون متأخرين هذه الامكانية التي خفف من الحاحها بالنسبة لهم وجود العميل الصهيوني الاكفأ) ثالثا : العنف اليهودي (الحاميات ـ شعار اليد العاملة اليهودية فقط ـ الخ) مضافا الى العنف الاستعماري (الطريقة التي قمعت فيها انتفاضة ١٩٢٩) .

ان الحديث عن ثورة ٣٦ ـ ١٩٣٩ يستلزم وقفة خاصة عند الشيخ عز الدين القسام ، فبالرغم من الكثير الذي كتب عنه الا انه بوسعنا ان نقول بان هذه الشخصية الفريدة ما تزال ، وربما ستظل ، شخصية مجهولة في الحقيقة . ان معظم الذي كتب عنه قد مسه من الخارج فحسب . وبسبب هذه السطحية في دراسة شخصيته لم يتردد عدد من المؤرخين اليهود في اعتباره «درويشا متعصبا»، فيما اهمله الكثيرون من المؤرخين الغربيين ، وفي الواقع يبدو ان الاخفاق في ادراك العلاقة الجدلية بين الدين والنوازع الوطنية في العالم المتخلف هو المسؤول عن التقليل من اهمية الحركة القسامية . ولكن مهما كان الرأي في افكار القسام ، فمما لا ريب فيه ان حركته (١٩٣٥/١١/١٢ ـ ١٩٣٥/١١/١٩) كانت نقطة انعطاف لعبت دورا مهما في تقرير شكل متقدم من اشكال النضال ، اذ انها وضعت زعامات الحركة الوطنية الفلسطينية التقليدية ، التي كانت قد انشقت على نفسها وتشتتت وتشرذمت،امام امتحان لا يمكن الفرارمنه. ولعل شخصية القسام تشكل في حد ذاتها نقطة التقاء رمزية لمجموعة هائلة من العوامل المتداخلة التي تشكل في مجموعها ما صار يسمى تبسيطا بالقضية الفلسطينية : فـ « سوريته » (هو من مواليد جبلة ، قضاء اللاذقية ، ١٨٧١) تمثيل للعامل القومي العربي في المعركة . و « ازهريته » (فقد درس في الازهر) تمثيل للعامل الديني ـ الوطني الذي كان يمثله الازهر في بداية القرن . و« نضاليته » (فقد اشترك في ثورة جبل حوران السورية ضد الفرنسيين من ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ وحكم بالاعدام) هي تمثيل لوحدة النضال العربي . وقد جاء القسام مع الشيخ محمد الحنفي (المصري) والشيخ علي الحاج عبيد الى حيفا في ١٩٢١ ،